نشأة الكتابة والخطّ العربي

د. الحافظ عبدالغني الشيخ *

يحتل الخط العربي مكانة بارزة متميزة في طليعة الفنون الاسلامية التي سخرت لخدمة الدين الاسلامي ، اذ هو الفن الراقي الذى يزين حضارتنا العربية و الاسلامية بشكل خاص.

نشأة الكتابة

لاشك أن الانسان قضى قرونا طويلة يأكل ويشرب وينام قبل أن يعرف اللغة ، ولاشك أيضا انه عندما عرف اللغة عرفها نطقا قبل ان يعرفها كتابة ، اذ تمر اللغة بمرحلة النطق قبل مرحلة الكتابة ، وكم من لغة زالت قبل أن تعرف الكتابة.

والكتابة رمز للغة كما أن اللغة رمز للفكر وهى ظاهرة انسانية اجتماعية عامه أستخدمها الانسان منذ اقدم العصور لتسجيل خواطره رغبة منه فى تذكرها ، أو توصيلها الى غيره من بني البشر عبر الزمان والمكان ، فأفادته في مختلف شؤونه الاجتماعية ، حتى أننا نعدها أحد أهم أسباب التقدم الحضاري فى جميع المجالات. (١)

---

* مدير معهد الألسنة و رئيس قسم اللغة العربية وأستاذ كرسي الدراسات العربية والأدب العربي، جامعة السند، معهد الألسنة ، جامشورو ، السند .

والثابت ان الكتابة مرت بأطوار عدة قبل ان تصل الى الطور الهجائي المستخدم فى أيامنا هذه.

وقد لخص الباحثون (٢) هذه الاطوار بالخمسة التالية:

١-الطور الصوري

وفيه لجأ الانسان القديم الى تصوير ما يريد التعبير عنه بالصور والرسوم. فإذا اراد الانسان أن يرسل رسالة الى زوجته أو الى صديقه ، يقول فيها أنه ذاهب الى صيد الحيوانات مثلا كان يلجأ إلى تصوير مشهد يدل على الذهاب إلى الصيد كأن يرسم رجلا بيده ، رمح ، أو آلة حادة، أو نحوها ، ولاشك أن هذه الطريقة فى الكتابة تستلزم الف الصور فضلا عن أنها تعجز عن التعبير عن المعاني والأفكار المجردة.

٢- الطور الرمزي

تقدم الإنسان القديم في هذا الطور خطوة كبيرة في الكتابة ، اذ رمز الى المعاني أو الى الأفكار المجردة بالصور ، فاذا أراد التعبير عن المحبة مثلا ، كان يرمز الى ذلك برسم الحمامة ، واذا أراد الرمز الى الملك صور تاجا ، والى النهار رسم شمسا. وفي هذا الطور أصبح الانسان لا يستطيع رواية قصة قصيرة الاّ برسم صور متسلسلة تدل على أشخاصها وأحداثها.(٣)

وهكذا انتقلت الكتابة من " الصورة الكلمة" الى "الصورة الرمز"، فأصبحت صورة القدم مثلا ترمز الى المشي أو الذهاب الى القدم نفسها، ونحن ما زلنا نستخدم هذه الطريقة في الاشارات التي نضعها على الطرقات وخاصة في اشارات السير أو المرور ، فمثلاً يضعون صورة أطفال يعبرون الشارع ركضا تعبر عن وجود مدرسة..... وهكذا في العديد من الاشارات.

٣- الطور المقطعي

يعتبر هذا الدور بحق بداية الكتابة الهجائية ، اذا لجا الانسان فيه الى تمثيل مقاطع الكلمة بصورلا علاقة لها بالكلمة نفسها.

مثال ذلك: لو افترضنا أن كاتبا مصريا أو بابليا (٤) أراد أن يكتب كلمة تبدأ بالمقطع "يد" كما في (يدحرة)، فانه يصور صورة يد، وهكذا انتقلت اللغة من دور لا يتم التعبير فيه عن معانيها الا بألوف الصور ، الى دور يكفيها فيه لهذا التعبير بضع مئات.

٤- الطور الصوتي أو الاكروفونيّ

لجا الانسان في هذا الطور الى استخدام الصور لدلالة على حروف الكلمة بدلا من مقاطعها ، فهذا اذا تطور للطور المقطعي السابق ، أو مرحلة متقدمة منه (٥) ، اذ يكفي للتعبير عن الأشياء والأفكار جميعا عدد محدود من الصور يساوي عدد الحروف الهجائيه.

فللتعبير عن كلمة "شرب" مثلا قد يرمز الانسان القديم الى الحرف (ش) بالشمس، والى الحرف (ب) بالبيت.

ونحن اليوم نلجأ أحيانا الى تعليم أطفالنا الحروف الهجائية مستخدمين الأسماء التي تبدأ بحرف معين لتعليم هذا الحرف ، فنقول مثلا:- (٦).

ب= بطه، ت=تمر ، ث=ثور ، ج=جل ، ح=حمل ،خ=خروف، د=ديك ، ذ=ذبابه ، ر=رأس، ز=زرافه ،س=سيف ، ص=صقر ، ض=ضياء ، ط=طائر، ظ=طبي، ع=عود ، غ=غيم ، ف=فار ، ق=قفص ، ك=كوكب ، ل=ليمون ، م=مهر ، ن=نار ، ه=هارون، و=واوي ، ي=يمين .....الخ.

٥- الطور الهجائي الصرف

وهو مرحلة متطورة من الطور الصوتي السابق ، اذ تم فيه استبدال الصور الرامزة الى الأصوات بالحروف ، واذا كان الباحثون ينسون الى المصريين (٧) استخدام الطريقة الأكرو فونية السابق ذكرها في الكتابة ، فانهم يعزون اكتشاف الكتابة الهجائية الى الفينيقيين سكان الشاطىء الممتد من اللاذقيه شمالا الى الكرمل جنوبا الى البقاع وقليلا بعدها الى الشرق. والحروف الهجائية الفنيقيه أصبحت أما لكل هجائ تال. وهكذا انطلق الحرف من سواحلنا ، فكنا معلمي العالم ومساهمين فعالين في حضارته وعمرانه.

نشأة الخط العربي

الخط لغة: هو الكتابة بالقلم

وقال صاحب القاموس: وخط الرجل الكتاب "من باب قتل" كتبة.

وقيل انه ماخوذ من الخطة بالكسر ، يختصها الرجل لنفسه , وهو ان يعلم عليها علامة بالخط.

وكما فى القاموس كتبه كتابا كتابة: خطه ، ككتبة ، واكتتبه او كتبه، خطة. وهي مأخوذة من الكتب وهو الجمع.

يقال كتب القوم اذا اجتمعوا.

قال الشاعر:

أنبئت ان بني جديلة شعراء من سلمى لنا وتكتبوا

يريد تجمعوا.

وكذلك سمي الكاتب كاتبا لأنه يضم بعض الحروف الى بعض من قولهم: (كتب القربة اذا خرزها الى خرز)

وقال تعالى في سورة المجالة:(٨) ﴿كتب في قلوبهم الايمان﴾ أبى جمعه.

للعلماء العرب القدامى في نشأة الخط العربي والخط عامة مذهبان مختلفان هما المذهب التوقيفي والمذهب الاصطلاحي.

اما المذهب التوقيفي يعيد وضع الخط الى ايحاء من الله، أو الى تعليم منه(٩). وقد زعموا أن أول من كتب الكتاب العربي واليونانى والكتب كلها أدم عليه السلام ، قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها بطين و طبخة ، فلما أصاب الارض الغرق ، وجد كل قوم كتابا ، فكتبوه ، فأصاب اسماعيل عليه السلام الكتاب العربي(١٠).

وقيل بأن الخط العربي توقيفي وذالك ظاهر في قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم﴾(١١).

ويذهب البعض الى ان النبي (أخنوخ) وهو النبي (إدريس) عليه السلام او اسماعيل ، هو اول من علم الحروف العربية عن طريق الوحي.(١٢)

اما المذهب الاصطلاحي الذي يقول بان الحروف العربية من وضع البشر ، فقد قالت به جماعة اخرى ، ناسبا وضعها الى ثلاثة رجال من قبيلة (طي)، نزلوا مدينة الانبار وهم (مرامر بن مرة ، أسلم بن سدرة ، عامر بن جدرة) اجتموا فوضعوا حروفا مقطعة و موصولة ثم قاسوها على حروف السريانية.

وقال بعضهم انها من وضع اشخاص ستت نزلو عند عدنان بن أرد و كانت أسماؤهم (أبجد، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت) فوضعو الكتابة والخط على أسماءهم وقيل ان اول من وضع الخط العربي حمير بن سبأ.

ولا شك ان هذه الروايات العربية لا تقوم على اساس علمي ثابت، وانها اقرب الى الخيال والاسطورة منها الى الواقع والعلم.

أما الدراسات الحديثة (١٣) فتؤكد ان العرب اخذوا خطهم عن الانباط، رغم العثور على بضعة نقوش عربية يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام مكتوبة بالخط النبطي المتأخر ، واهم هذه النقوش نقش أم الجمال (١٤) فى حوران . وحينما اصبحت الكوفة حاضرة الخلافة الاسلامية زمن الخليفة على بن ابى طالب كرم الله وجهه عنى الكتاب بتجويد هذا الخط و تطويره حتى عرف بالخط الكوفي وظل القرآن الكريم يكتب بهذا الخط مدة ثلاثة قرون مع تغيرات طفيفة أجراها الكاتبون في بلاد الشام في زمن الامويين.

اما في زمن العباسيين فقد ادخلت عليه تحسينات على يد جماعة من الخطاطين ابرزهم الوزير بن مقله (م٣٠٠هـ) الذي كان له الفضل في هندسة الحروف وجاء بعده ابن البواب ، وقد طور هؤلاء الخط الكوفي وادخلوا عليه اللين والمرونة فيما عرف بعد بخط النسخ ، الذي اصبح يكتب به القرآن الكريم الى يومنا هذا.

اما في عهد المماليك في مصر فقد اشتق الخطاطون خط الثلث من سابقه واخذوا يتبارون لنيل الهدايا والجوائز على لوحاتهم الجميلة من السلاطين.

اما في عهد الاتراك العثمانيين ، فقد حذف الخطاطون خط الثلث الذي اخذوه عن المماليك ، وخط النسخ الذي اخذوه عن السلاجقة والمدرسة العراقية و استحدثوا بعد ذالك خط الرقعة والخط الديوانى.

وقد برع الاتراك العثمانيون كذالك في الخط الديواني حيث كان مخصصا لخدمة الخلافة والسلاطين والدواوين الرسمية.

ثم اضافوا بعد ذلك خط الاجازة الذى يجمع بين الثلث والنسخ وحينما دخل الفرس في الاسلام استبدلوا الحروف الفهلوية بالحروف العربية فقرء وابها القرآن واصبحت مادة كتاباتهم ، فكان مولد الخط الفارسي في اوائل القرن الثامن الهجري او خط التعليق.

الهوامش

١- جرجي زيدان: "الفلسفة اللغوية" ص ١٣١-١٣٤

٢- انيس فريحة : "حروف الهجاء العربية نشأتها وتطورها" ١-٥

٣- موسوعة الموسوعة ، ص ٢١٣

٤- ايس فريحة: "حروف الهجاء العربية: نشأتها وتطورها" ص ٤-٥

٥- جورجي زيدان " الفلسفة اللغوية" ص ١٣٣-١٣٤

٦- عبدالعزيز بوريني: "تعيين تدريبي في الخط العربى "وزارة التربية، الاردن ١٩٨٩.

٧- انيس فريحة: "حروف الهجاء العربية" ص ٤-٥

٨- المجادله/٢٢، أنظر كذالك "شرح المعلقات لابن الانباري".

٩- قال بهذا المذهب احمد بن فارس القزويني الرازي (٣٢٩-٣٩٥هـ) احد أئمة اللغة والادب قرأ عليه بديع الزمان الهمذاني ، والصاحب بن عباد وغيرهما من مؤلفاته معجم المقاييس، المجمل أنظر الزركشي "الاعلام" ص ١٩٣.

١٠- ابن فارس: "الصاحبى في اللغة " ص ٣٤.

١١- العلق/ ١-٥

١٢- انيس فريحة حروف الهجاء العربية ص ١-٥

١٣- رمزي بلعبكي: "الكتابة العربية والسامية " ص ١٢٢، إبراهم جمعة: "قصة الكتابة العربية" ص ١٧ (والانباط هم عرب وقعوا تحت تأثير الثقافة والحضارة الآرامية فجاء خطهم آراميا ولغتهم مزيجا من الآرامية والعربية ، وكانت عاصمتهم البتراء في جنوبي الاردن).

١٤- موضع فى الاردن الى الجهة الشمالية بقرب سوريا.